



نظرية البلاغة بين جاذبية الأصالة ومغريات الحداثة عند عبد الملك مرتاض ومحمد العمري

¹ميمونة مقيدهش*

¹جامعة سيدي بلعباس (الجزائر)

The theory of rhetoric between the attraction of originality and the temptations of modernity, Abd el-Malik Murtad and Muhammad el-Omari

¹Meymouna mekaideche

¹<https://orcid.org/0000-0006-0168-5717>

University Sidi Bel Abbes, (Algeria), mimounamekaideche93@gmail.com

تاريخ النشر: 2023 /12/01

تاريخ القبول: 2023 /08/21

تاريخ الاستلام: 2023/06/16

ملخص:

من المتعارف عليه منذ القدم أنّ الأدب يوجد أولا ثمّ ينشأ النّقد ملازما له ويظهر في صورة بسيطة لا تتجاوز العفوية والتلقائية، هذه الممارسة التقديريّة التقليديّة يعتمد فيها الناقد على الذوق والعاطفة أثناء محاولة القراءة والتّديق في إصدار أحكامه التقييميّة اتّجاه ما يعرض عليه من أعمال يميّز فيها الجيّد من الرديء؛ غير أنّ ما آل إليه النّقد اليوم كونه كتابة قوامها المعرفة نتيجة ثورات فكرية متعاقبة جعلت له انتماءات أيديولوجيّة وثقافية، ربطت ممارساته باتجاهات ونظريات معرفيّة مختلفة نظرا لارتقاء العمل الإبداعي، الأمر الذي من شأنه طرح محاولات نقدية تتجاوز النّقد التأثري القائم على الشعور إلى النّقد الموضوعي القائم على العقل.

يتمخض عن هذا التغيير ظهور وتراكم مصطلحات كثيرة تتبنى مفاهيم عديدة سيما في النّقد الحديث، حيث يجد المتلقي نفسه تائه الفهم في مدلولات المصطلح مشوش الادراك حول دقة صيغته نتيجة اختلاف الظروف والبيئة الناشئ فيها؛ ولتقليص الهوة بين ضفاف المعمورة ونحو محاولة ضبط مصطلحات الفكر النقدي عامة والعربي تحديدا، سجلت عدة اجتهادات حديثة حوت عدة مواضيع نقدية لعل قضية البلاغة أبرزها، ولنا في محاولة عبد الملك مرتاض ومحمد العمري نموذجين يستوجب المعالجة.

كلمات مفتاحية: النّقد، نظرية، البلاغة، الأصالة، الحداثة.

Abstract:

Recent monetary changes give rise to many new terms and concepts; it is necessary to stand on the terms, adjust their significance, and take note of the circumstances of their development remove interference from the receiver; critical jurisprudence tried to adjust many terms, such as rhetoric, the subject of intervention.

Keywords: criticism; theory; rhetoric; originality; modernity.

* المؤلف المرسل.

مقدمة:

لعلّ التغيّرات الطارئة على أشكال المعرفة عبر الأزمان والعصور انطلقا مما تشهده تظاهرات الأطر الاجتماعية ينتج عنه تطوّر على مستوى الأنساق المعرفية الحاملة لمعالم التفكير والبحث، إثر ذلك تتأسس معارف جديدة لظواهر عديدة تشتت مواكبة تلك التغيّرات باعتبارها منظومات ومقولات كبرى تسهم في تكوين منهج قويم سلس التعامل مع المواد المراد دراستها.

وذاك هو حال التقدّ والخطاب اليوم، كون الأول عملية وصفية مواكبة لعملية الإبداع يتمّ من خلاله تبيان مواطن الجودة والرداءة على مستوى الخطاب الذي -هو نتاج عملية إبداعية- يعدّ محور قيام الدّراسات التّقديّة وهدفها الأسمى تناولا وتحليلا، وفق آليات تطبيقية معينة تواضعت عليها نظريات متعدّدة.

ولعلّ أهمّ الدّراسات التّقديّة التي من شأنها احتواء الخطابات منذ الأزل هي البلاغة الملازمة الأبدية للتقدّ الأدبي؛ إذ أوّل ميدان لتفعيل إمكاناتها كان النصّ الشعريّ فالقرائيّ ثمّ بعض النثرية وصولا إلى اقتحام عالم السرديات حديثا، حيث إنّ طبيعة كلّ عمل إبداعيّ أدبيّ واقع تحت مجهر التطبيق المنهجيّ لأية دراسة نقدية يختلف من بنية إلى أخرى، فمثلا ما يناسب عملا شعريّا قد لا يتوافق والسرديات.

الأمر الذي من شأنه جعل البلاغة تُعنى باهتمام كبير في حقول المعرفة بدءا بمقولات أرسطو، مروراً بالدّراسات العربية في أزهى عصورها الذهبية وصولا إلى أطروحات التيارات التّقديّة الحديثة، خاصة بعدما أحدثه الدرس اللساني من تطورات وبعث روح التجديد في المناهج الحداثيّة.

أضفى هذا التطور على الحقل البلاغيّ صبغة علمية من حيث الطّرح المفهوميّ، فبعد ما شهدته البلاغة في مسيرتها من تراكمات اصطلاحية عبر مختلف محطاتها التاريخية حاول الطّرح الحديث للبلاغة إعطائها بعدا مفاهيميا جديدا كونها أحد أهمّ وجوه المعارف والعلوم التّقديّة والأدبيّة، حيث بذلت جهودات مهمّة في إعادة القراءة والتأسيس لجزيئات البلاغة متّخذة من التعقيد البلاغيّ القديم مرجعا ومصدرا لمنطلقاتهم الوضعية العلميّة، مواكبة للتطور اللسانيّ الحاصل وما أحدثه من تغيّرات منهجية من جهة ومحاوله لاحتواء مختلف الخطابات الأدبيّة المعاصرة من جهة أخرى.

فتباينت المدارس الأدبيّة والتّقديّة على اختلافها مشارها في تكميل الرؤية، وفتح مجالات استيعاب النصّ والسبيل إلى إنتاجه والوصول بالقارئ إلى أعظم مستوى من الفهم، ذلك عن طريق وضع مصطلحات بلاغية تعدّد استخدامها بين الواضعين لها وفق معاني في كثير من الأحيان كانت مختلفة التسميات. فما الجديد الذي جاء به المفكرون؟ وأين يكمن التجديد في مجال البلاغة؟ وهل حقا هناك بلاغتين قديمة وجديدة وما طبيعة العلاقة بينهما؟

للفصل في الموضوع اعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي تقنيا لما هو متداول في العديد من الدراسات الحديثة-على غرار محاولات العمري ومرتاض.

المبحث الأول

مصطلح البلاغة في التراث العربي

إذا ما تناولنا مصطلح البلاغة في المحاضن العربية فإننا سنصطدم لا محال بمجال التقد، حيث إنهما يُقسّمان ضمن مجال الأدب، ذلك القاسم المشترك الذي قرّبهما وجمع بينهما «فالنقد تحليل وكشف عن مواطن الإبداع»¹ والبلاغة «قواعد، تعيين المبدع على التعبير البليغ»²، وعلى الرغم من أسبقية أحدهما على الآخر إلا أنّهما يجوبان ويلتقيان في حقل واحد هو الأدب؛ حيث إنّ التقد يعتمد على المقولات البلاغية وهذه الأخيرة لا تقوم لها قامة دون حسن نقديّ، لذا نلفي التقد العربيّ القديم في مجمله نقدا بلاغيا³، أين كانت الآداب العربية قديما مبنية على المشافهة، تتجه فيها البلاغة إلى لغة التخاطب كمجال خصب يستعرض من خلاله المبدع مهاراته اللغوية من لفظ وتركيب وأسلوب، بغضّ النظر عن أنواع النصوص التي كانت ترصف والخطابات التي كانت تقال فـ «لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه؛ فلا يكون لفظه إلى سمعك أقرب من معناه إلى قلبك»⁴، لذا اشترط في الكلام أن يجاري لفظه معناه حتى يستقيم ويستقرّ في ذهن السامع، وما كان غير ذلك فيشوبه التكلف والصنعة والتنميق ينفر منه.

ثمّ إنّ للبلاغة وعائها ووسائلها الخاصة التي «يبليغ به المعنى قلب السامع فتمكّنه في نفسه، كتتمكّنه في نفسك، مع صورة مقبولة، ومعرض حسن»⁵. متكافئ تركيبيا يخلق تعبيرا جذابا ملفتا، يمتلئ السامع كتملكه من الباث على نحو متساوٍ أو متقارب الوضوح والدقة والتأثير، يطابق به مقتضى حال المخاطب.

لا يتأتى ذلك للجمعاء وإنما لفئة خاصة تجيد التواصل مع الآخر ببراعة وحذاقة لغوية آسرة ما يجعل «بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقّها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها»⁶، فحتّى يتاح للباث التمكن من نسج كلام بلاغيّ على الوجه المطلوب، وجب أن يستوفي كلّ الشّروط الجماليّة التي تخدم المعنى الذي يوّد إيصاله، ما يتطلّب فطنة ودكاء وخبرة عالية.

ويقول ابن خلدون في حديثه عن معنى البلاغة كونها تحقيق المتكلم قصده المنشود في مخاطبه: «اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني وجودها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة، للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة»⁷. أي أنّ تحقيق البلاغة

لغايتها مواصفات تكمن في امتلاك لغة تعبير ذات مفردات دالة لها معاني قوية تحتوي الفكرة المعبر عنها في أبهى تركيب، آخذة بعين الاعتبار القصد المطلوب والمناسبة التداولية.

يتجلى لنا ظاهراً أنّ النقاد العرب المأخوذ عنهم بعض هذه التعريفات وآخرين لم نأت على إبداء تعاريفهم للبلاغة في هذا الشق من البحث -اختصاراً لتمائل وتقارب الوضعيات المفهومية للمصطلح- أنهم اهتموا في وضعهم لماهية البلاغة بعناصر العملية التواصلية من المتكلم الذي يشترط فيه أن يكون بليغاً، و الكلام الذي يشترط تركيبه وفق أساليب بلاغية محكمة الصياغة، والسامع الذي يسعى المخاطب إلى إقناعه و نقل الصورة التي تسيطر على كيانه وبأمانة تامة إلى ذهنه حتى يستوي معه في الفهم والإدراك؛ شكل ذلك نظرية سابقة لأوانها مهد لها نقاد العرب قديماً.

المبحث الثاني

البلاغة الجديدة

لعل حديثنا عن البلاغة الجديدة يقودنا إلى سبق الغربيين في تأصيل مفهوم البلاغة وإعادة ضبط أطرها، انطلاقاً من قراءة البلاغة اليونانية القديمة قراءة موازية لما أحدثته اللسانيات من تطوّر في الدرس اللغويّ والمجالات الإنسانية، الأمر الذي يخلص الدرس البلاغيّ ممّا لحقه من تشويه، وما شابه من تعقيد وتبسيط مخل، وما اتّصف به من معيارية في التصور القديم. ولما كان الهدف والمنطلق محددين، تباينت منطلقات الدراسات والجهود المهمة بمجال البلاغة، فانصبت اهتمامات البعض في مباحثة البعد الفلسفي المنطقيّ لأرسطو ممثلاً في الحجاج كوسيلة ناجعة في محاورة الخطابات الحديثة، وبعضهم حول تركيزه نحو الوريث والبديل الشرعيّ للبلاغة مختزلاً في الأسلوبية، بينما وجه البعض الآخر عنايته بعلوم النصّ أو علم النصّ واعتباره وجهاً عصرياً عاماً للبلاغة⁸، وبين مجدّد ومختزل ومعمم، تميّز الدرس البلاغيّ بطفرة نوعية من التجديد ونوع من الحركة جعلت منه علماً مستقبلياً مستقلاً واعداء، له من الشؤون والتنوع ما يستقطب أكثر من نسق معرفي يدارس مباحثه.

الأمر الذي نتج عنه ميلاد توجهات معرفية حديثة تسبح في فلك علم البلاغة العام وتشكل معلمه، وجب الوقوف عليها لفهم النظرية البلاغية المعاصرة وسبر أغوارها.

➤ بلاغة الحجاج أو بلاغة البرهان:

لقد اختلفت التراجم في تحديد تسمية موحدة لهذا الوجه البلاغيّ، فصار يجري التعبير عنه تارة بالتوجه الحجاجي المنطقي⁹ أو الاتجاه الحجاجي (البلاغة حجاج وإقناع)¹⁰ أو التحليل البلاغي الحجاجي¹¹، إلا أنّ جميعها تصبّ نحو ذلك التوجّه القائم على الحجاج والمنطق والفلسفة والاستدلال ملغياً الانفعالية والاعتباط.

يعزى هذا الاتجاه إلى صاحبيه بيرلمان شايم Chaim Perelman وتيتيكا لبريشث Lucie Olbrechts-tyteca من خلال عملهما المعروف بمصنف في الحجاج، البلاغة الجديدة أو مقال في البرهان: البلاغة الجديدة الموضوع سنة 1958م، معتمدين الطرح الأرسطيّ البرهانيّ مع شيء من التعديل والإضافة: «كتقنية خاصة وتمييزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد، وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر»¹² حيث يرمي التوجّه البرهانيّ لهما - بيرلمان وتيتيكا - إلى تجاوز الأجناس الخطابية المخصصة بالحجاج الأرسطيّ (القضاء، المشاورة، الاحتفال) الذي يشترط فيها حضور المخاطب، ليشمل (الفلسفة، والتّقد، والقانون، والسّانيات، والفنّ، و... إلخ) إذ لا يكون حضور المخاطب فيها لزاماً وضرورياً ما يدعو إلى مراعاة جميع المتلقين في كلّ عصر وفي أية مناسبة وحسب ثقافة كلّ زمن، فقد يتجلّى وجود المتلقي شخصياً - فرداً أو جماعة - أو ضمناً غائباً (قارئاً) - افتراضياً أو محدداً، أو حتّى يمكن أن يكون ذاتياً (المتكلّم نفسه).

وفق هذ الطرح يتناول بيرلمان وشريكته فكرة المتلقي فيعززان حظوظه في عملية التّخاطب التّفاعلية مهما كانت صفته ف« الأهم في الحجاج ليس ما يعتبره الخطيب حقيقياً ومقنعاً، وإنّ العبرة بالتقويم الصادر عن مخاطبيه»¹³ إذ إنّ الغاية من التّوظيف الحجاجي واضحة تكمن في إقناع الغير وإثارة فضوله إزاء قضية ما إما تسليماً بالحجّة أو دحضها أو اقتراح بديل لها.

يثير ذلك قضية أخرى في التّظرية الحجاجية المعاصرة تعود إلى أزمان غابرة ألا وهي قضية الإقناع والاقناع حيث يقرّ بيرلمان معبّراً «أن ما نبهت عنه كان قد عولج من طرف مبحث ضارب في القدم، منسي حالياً ومستهجى، هو البلاغة، أي فن الإقناع والاقناع»¹⁴ فالشقّ الأوّل الخاص بالإقناع عتيق الطرح ينجلي حضوره جلياً واضحاً في التّنظيرات البلاغية الأرسطية حيث تطرح الحجج وتقدّم البراهين محتملة أو ثابتة، تقديرية أو مخادعة، يقتنع بها المخاطب اقتناعاً تعسفياً مجرماً لا مخيراً، يوازي ذلك طرح جديد في الحجاج المعاصر حين اجتهد الثنائيّ في إعادة تحوير فكرة الإقناع الأرسطيّ واعتماد الشقّ الثاني الاقناع محورا ركيزاً للبلاغة الجديدة ف« غاية أي حجاج أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازها أو الإمساك عنه)، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيين لذلك العمل في اللحظة المناسبة»¹⁵ فيتاح للمخاطب إمكانية الجدل والتّقاش (أخذاً ورداً) في تمحيص ما يطرح عليه وما يقدم له من حجج، ويتمنح له مجال الحوار والانفتاح عليها حتّى يحصل اقتناعه عن طيب خاطر وقناعة تامة، إذ لا يكره عليه تقبلها في شيء فيحصل له تبني الوهم والتّضليل والمغالطة مثلما كان يحدث في البلاغة الكلاسيكية.

يفيد الطرح السابق حقيقة علمية مفادها أنّ البلاغة الحجاجيّة هي رؤية معاصرة لبلاغة أرسطيّة جديدة معارضة لبعض ما ألف من بلاغة للصورة والمحسّنات التي من شأنها مجرد التأثير في الغير وامتاعه (أرسطو)، وحسب طرح بيرلمان وتيتيكا فإنّ «كلّ محسن هو حجاجي إذا ما كان استعماله في تأدية دوره لتغيير زاوية نظر ما معتادا في علاقته بالحالة الجديدة المقترحة فإنّ لم ينتج عن الخطاب استمالة فإنّ المحسن مجرد زخرفة أسلوب مقصر عن أداء دوره»¹⁶ أي أنّ كلّ صورة تسهم في تغيير موقف المتلقي إزاء قضية ما فتحقق الغاية والهدف تعدّ من صميم الحجاج وأحد مقوماته التقنيّة لما لها من قيمة حجاجيّة أوّلا وإقناعيّة ثانيا، وإذا تعدّ أداء غايتها فإنّها تعدو مجرد مصدر للإعجاب والامتاع فقط.

➤ البلاغة البنيويّة العامة:

أو ما يعرف بالتوجّه الأدبيّ (الشعري) أو التوجّه الأسلوبيّ¹⁷ ظهر هذا التوجّه في منتصف القرن الماضي بفرنسا على يد الملقين بالبلاغيين الجدد أمثال: "جيرار جينت، وجان كوهين، وتودوروف، وجماعة "م" أو جماعة "ليجا" كما تسمى أحيانا"¹⁸ ما يفسّر نسب ولادته من رحم البنيويّة التقديّة نتيجة إفرزات الشكلايين.

ولعلّ ما يعلّل لبروز الدّراسة الأسلوبيّة في الساحة التقديّة أنّها ظهرت «على أنقاض العصر البلاغي المتزلزل، لتعمر نحو ستين عاما، كانت مرحلة الخمسينيات من القرن العشرين أزهى سني حياتها»¹⁹ إذ بعدما تعرض الدّرس البلاغيّ الكلاسيكيّ إلى تلك الانتكاسة المعرفيّة حيث استنفذ جميع إمكاناته وطاقاته التعليميّة ووسّم بالمعيارية والعجز، ليعلن عن موته في نهاية المطاف، حلّت الأسلوبيّة محلّه كبديل ووريث شرعيّ تربّع على عرش البلاغة ممثلا وجهها الجديد.

يعني هذا التوجّه برصد البنيّات البلاغيّة الشكليّة على مستوى النّص والخطاب وذلك بتحليل العلاقات التركيبيّة والدلاليّة وعلاقات التّضام الصوّتيّة²⁰ كون النّص / الخطاب ظاهرة إبداعية مبنية على آليات لغويّة وبلاغيّة تفرض نوعا من القراءة الوصفية داخل ذلك النّظام اللّغويّ (الكلمات والعبارات) لتتبّع الأحداث واستقراء الظواهر استخراجا للسمات الفنيّة والجماليّة الكامنة في النّص.

بعد رصد البنية البلاغيّة وبيان علاقاتها كمرحلة أولى من مهمّة البحث البلاغيّ الأسلوبيّ، وجّهت الأسلوبيّة كمرحلة موائية عنايتها بأثر تلك البنيّات الشكليّة على صعيدي الفكر والتلقّي «فالأسلوبية هي اصطلاح مجموعة من الفعاليات الأسلوبية للغة من اللغات لتجميل نسجها، وامتاع المتلقي به كما يمتع الموسيقار أذن سامعيه بأنغام الموسيقى»²¹ أي البحث والوقوف على مختلف الإمكانيات التصويريّة والقدرات أو الطاقات التعبيريّة المتاحة للمخاطب استعمالها وانتهاجها وسيلة وغاية في إثارة المخاطب.

يستقي التوجّه الأسلوبيّ مقولاته ومعالمه العلميّة بتقاطعه مع عدّة «تيارات تحديّثية تتزامن مع حركات تجديد أخرى مثل النقد الجديد والرواية والسينما الجديدة، وكلها تمثل ظواهر متقاربة في منبعها ومصبتها»²² ما يجعل

المبحث الأسلوبي مسلكا علميا مشعبا بالعلوم والأنساق المعرفية المتقاطعة الحدود، المتعاقبة فيما بينها كالشعرية والسيمايية والدلالة والتداولية... إلخ.

➤ التوجّه الخطابي السيميائي:

ويساق عبارات عديدة منها: التحليل التداولي للخطاب²³، والاتجاه السيميائي²⁴؛ توجه يسعى إلى خلق بلاغة حاوية تضمّ مختلف أنواع الخطابات لأنّ «البلاغة الإغريقية، واللاتينية، وكل النظرية اللسانياتية للسفسطائيين يمكن الإقرار بأنّها أشكال تداولية للخطاب»²⁵ ما يحمل نوعا من التواضع بين البلاغة والتداولية عتيق العهد معبر عنه منذ أزل من خلال تنظيرات متعاقبة تاريخيا.

ولما كانت قوالب البلاغة الجديدة تشتغل ضمن منطلقات تداولية، فإنّ الأخيرة بالذکر - التداولية - «تنطلق من هدف أساسي هو استثمار الممكن والمتاح من الآليات لتوصيل رسالة لغوية معينة وجعل المعنى بها يعيها ويتحرك في إطار إنجازها... والبلاغة تداولية في صميمها؛ إذ إنّها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يبلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما»²⁶ يتّضح جليا من خلال هذا القول تلك القواسم المشتركة التي تجمع الحقلين، فكون أنّ البلاغة تهتمّ بثلاثية العملية التواصلية ممثلة في دور المتكلم (المرسل) في افعال التأثير على السامع (المرسل إليه) بواسطة الوسائل المحددة (الرسالة) وهي الخطاب بكل أنواعه وأشكاله: لغة، شعرا، نثرا، صورة، إشهارا، رسما، موسيقى... إلخ)، فإنّ ذلك يعدّ من صميم الحقل التداولي الذي يعمل على جعل مختلف آليات وأفكار المرسل المتاحة له منفتحة على أي شكل من الأشكال الخطابية المعروفة (الرسالة) المعينة على التأثير والمساعدة في تفعيل عملية إدراك المعنى بها (المرسل إليه).

تطابق الغايات والأهداف بين العلمين واقتراحهما على المدى القريب والبعيد و«مثل هذه الخاصية التي تتمتع بها هذه النظرية تجعل منها أداة شديدة الفعالية لاستكشاف حقول من القراءة لا تنتهي حدودها ولا تغلق آفاقها»²⁷ فسيرورة تعدّد القراءات وتنوعها يضمن ديمومة وتحديثا مستمرًا لمقولات الحقلين.

فهذا هنريش بليت قد استثمر الانفتاح التداولي في مقاله: البلاغة والأسلوبية لتوسيع مجال البلاغة وجعلها علما للنص، منطلقا من وضعه الأبعاد الثلاثة للخطاب: التركيب، الدلالة، التداول²⁸، يتمّ رصد العلاقات التركيبية نحويا بين الجمل داخل النص (اللغة)، ومن تمّ الوقوف على دلالة تلك التركيب وفحص علاقتها بالموضوع المعالج، ينجم عن ذلك وصف لطبيعة اللغة بين طرفي التواصل مجسّدا في مدى تحقّق المقصدية؛ ذلك كلّه يحصل الاهتمام والإمام بمختلف جوانب العملية الإبداعية من نسق وسياق ومقام.

المبحث الثالث

مصطلح البلاغة في الدراسات العربية الحديثة:

لعلّ ما أصاب الدّرس اللّغويّ حديثاً من تطوّر واهتمام علميٍّ ملحوظ أفرزته الدّراسات والبحوث الغربيّة حول ما سميّ باللّسانيّات، أدى إلى ضرورة مواكبة التّطوّرات الحاصلة، ومحاولة مقارنتها بمختلف الموروثات العربيّة القبليّة، شكّل ذلك مبادرة الخروج من بوتقة التنميق والزخارف اللفظية التي آلت إليها المفاهيم البلاغيّة وشهدتها بشكل خاص في ثقافتنا العربيّة لتشهد بوادر عصر جديد من اهتمام وعناية المحدثين العرب، الذين سعوا إلى خلق نوع من التجديد في طرح مسائل البلاغة خاصة في ظلّ ما عرفه العصر الحديث من مذاهب أدبيّة وخطبيّة مختلفة. ولنا محاولات كثيرة في النقد العربي نخص منها المغاربي الحديث والمعاصر باجتهادات كل من: محمد العمري وعبد الملك مرتاض-أمّودجين.

أ-نظرية عبد الملك مرتاض البلاغية:

لعبد الملك مرتاض العديد من الكتابات التّقدّية والأدبيّة في التّقد العربيّ الحديث والمعاصر ولعلّ الأبرز منها علاقة بموضوع مداخلتنا هي محاولته الجريئة والحكمة في نظرية البلاغة- متابعة لجماليّات الأسلّبة: إرسالاً واستقبالا، والتي سعى من خلالها إلى إعادة ترتيب وهيكل مفهوم البلاغة العربيّة وكشف حقيقتها تأسيساً لنظرية بلاغيّة وفق ما يعرف بالبلاغة التّقدّية حيث يتمّ التّعامل مع البلاغة كعلم أو مدرسة؛ باعتبار ذلك قام مرتاض بتقديم مفصل لنظرية البلاغة العربيّة معتمداً كلّ الخلفيات التاريخيّة والمعرفيّة للمصطلح البلاغيّ جامعا بين جاذبيّة الأصالة ومغريات الحدائثة والمعاصرة؛ فتطرّق إلى العديد من القضايا والمواضيع والمشكلات العلميّة والمعرفيّة التي تصبّ في مجال النّظرية البلاغيّة وتحرك معطياتها؛ مدافعا من جهة عن الموروث العربيّ لنقادنا القدامى ف" التراث العربيّ الأصيل حدائثة متوجهة" مادام الهدف الأسمى من المخزون التراثيّ لبلاغتنا العربيّة هو الحفاظ على اللّغة ومراعاة سلامة تطوّرهما كوجه من أوجه الحضارة العربيّة الإسلاميّة، فإنّ البحث فيها في صيرورة دائمة وعمليات إعادة قراءة مقولاتها لا تزال مستمرة واستكشاف مكنوناتها متواصل؛ ومن جهة أخرى داعيا إلى تغيير مناهج تلقين الدّرس البلاغيّ معارضا عمليّة الاستشهاد له بأمتلة مقتلعة من أصولها القديمة كثنوبات منقطة، في حين -حسب مرتاض- يمكن خلق البديل في تقرير نصوص أدبيّة أنيقة تزخر بملامح بلاغيّة جديدة تبعث روح التجديد في البلاغة العربيّة معترضا على الوقوف عند تاريخ البلاغة وتلخيصاتها وشروحها، وأنّ ذلك يتطلّب عقلا واعيا ورؤيّة نقدية قادرة على الرّبط بين المنطلقات والمعالم القبليّة والمعطيات العلميّة المستجدّة كما فعل مرتاض في نظرية البلاغة .

لعلّ القارئ لمؤلف مرتاض في نظرية البلاغة سيقف عند مستهله وقفة متمعنة يتقفى من خلالها منطلقات ورؤى الناقد المنادي في مقدّمة منجزه إلى ضرورة إعادة النظر في مفهوم البلاغة مثيرا العديد من الإشكاليّات التّقدّية حيث يتساءل حول: الغايات التي تسعى البلاغة إلى تحقيقها: أهي وصفية أم مجردة؟ أم هي جمالية فنية؟ وهل

انتهى عصر البلاغة وجاء عصر اللابلاغة، حقاً؟ وهل من بلاغة جديدة حقاً؟²⁹ وللإجابة عن ذلك عبر مرتاض محطات مختلفة استفاض فيها بالشرح والتفصيل عبر ستّة فصول لكلّ منها شأن معلوماتي مترامي الأطراف تستوجب من متلقيها امعان الدّراسة.

يعرض مرتاض في مقدمة نظرية البلاغة مجموعة من أهمّ التعاريف المتداولة والمتناقلة الواردة في المعاجم حول مفهوم المصطلح البلاغي مذيلاً لذلك بما جاء على لسان الجاحظ في مؤلفيه الحيوان والبيان والتبيين هذا الأخير الذي عني بحقيقة البلاغة والبيان منذ عهدتها البشرية في كلامها، وحسب مرتاض فإنّ الجاحظ كان ينجح من خلال بيانه (البيان والتبيين) إلى تأسيس نظرية ما يطلق عليها حديثنا التبليغ أو الإيصال وذلك له إشارات في الحيوان أيضاً حيث: اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال...³⁰ أدوات تقوم على إثرها نظريات التواصل والإبلاغ. والجدير بالذكر أنّ مرتاض ينبّه وينوه من خلال تقديمه لمفهوم البلاغة ووظيفتها استناداً على ما جاء به الجاحظ أنّ العديد من أممّ المعمورة قد اشتغلت بالبلاغة قبل العرب فترة من الزمن، خاصة الفلاسفة الإغريق وأبرزهم أرسطو في فنيّ الشّعر والخطابة، وكثيراً ما تختصر البلاغة في الفكر الغربي في فنّ القول الجميل كون وظيفتها ضرب من نظريات الخطاب.

وقد رجح مرتاض سبب عزوف وتجاوز مفكري النقد الغربيّ الحديث منجزات الفكر العربيّ البلاغي القديم قائلاً: «ولعل الذي حمل الغربيين المعاصرين على تجاهل الجهود البلاغية العربية أنّها تجانفت كثيراً للتطبيقات على بعض الآيات القرآنية، وبعض الأبيات الشعرية، وبعض النصوص الأدبية الثرية الرفيعة النسيج، مجزأة مقزعة، دون التركيز على الشق النظري في مفهوم البلاغة، الذي لم يكده يعني به إلا أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، ثم من بعده أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي...»³¹ فأهمل العرب الجانب النظري وأولو التطبيق كلّ عنايةهم اهتمامهم ما جعل سعيهم وجهودهم غير ممنهجة لصرف النظر عنها.

ويبدأ التناول الفعليّ-حسب مرتاض-بمحدود البلاغة اشتغالا على حقيقتها في التراث العربيّ مع عبد الله بن المعتز في كتاب البديع الذي حوى قضايا بلاغية متنوعة من مكونات وتعريفات وأقسام ومحسنات.

ويعرف مجال الاهتمام بالبلاغة توسعا بعد البديع اشتغالا بمفهوم البيان كفرع بلاغي مستقل مع الرماني في النكت في الإعجاز القرآني حيث تعرف البلاغة «أنّها ليست هي (إفهام المعنى)، لأنّه قد يفهم المعنى متكلمان: أحدهما بليغ، والآخر عيبيّ، ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنّه قد يحقّق اللفظ على المعنى وهو غثّ مستكره، ونافر متكلف، وإنّما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في حُسن صورة من اللفظ، فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن. ويقوم هذا التعريف، كما نرى، على محورين اثنين: أحدهما هو التبليغ من حيث هو على وجه الإطلاق، وهي الوظيفة الأولى للغة في حقل البلاغة، وهو ما يناقض معنى العيبيّ والفهامة. وأحدهما

الآخر، هو حُسن التبليغ، أي ما يمكن أن نطلق عليه بتعبير معاصر (جمالية الإرسال) من أجل التأثير في المتلقي، وأسر انتباهه فيتلذذ باستقبال الرسالة الكلامية المثبوتة إليه في أحسن صورة»³² وفي نظر مرتاض محاولة الرّماني في تعريف بلاغة القرآن الكريم أكثر منهجية تفصيلا ووضوحا حيث يتم الجمع بين اللفظ والمعنى إذ الغاية منهما «إيصال المعنى إلى المتلقي في أحسن صورة ممكنة من نسج الألفاظ. وهذه هي النظرية البلاغية التي وقع الاتفاق عليها لدى نهاية الأمر»³³ ولربما بذلك يتبوأ اجتهاد الرّماني المكانة الأولى ويمكن الجزم أنه أسبق الأعمال البلاغية العربية إلى تأسيس علم البلاغة في رأي مرتاض، فقد حدّدت محاولته البلاغة في ثلاث طبقات «حين قرّر أنّ منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقة فهو مُعْجَز، وهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون ذلك فهو ممكن، كبلاغة البلغاء من الناس»³⁴ يجعل هذا التّحديد من الرّماني مفكراً ومنظراً بلاغياً، وعليه يقرّ مرتاض بأثر القرآن في تأسيس نظرية البلاغة كونه مصدرا لظهور وتطور العديد من العلوم، ففي قوله تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا}³⁵ تشكّل الآية نقطة انطلاق البحث البلاغي العربي اهتماما بالمسألة الإعجازية وإعلانا لنشأة بلاغة عربية شغلت بال الكثير من العلماء وأفاضت وعاء العلم بما جادت به كتاباتهم.

كما يشيد مرتاض بمنجز السكاكي في مفتاح العلوم ويعده مؤلفا بلاغيا منهجيا ملماً بفرعي البلاغة: المعاني والبيان³⁶ مؤكدا على أنه مثل بوادر الانطلاقة الحقيقية للتفكير في وضع نظرية بلاغية كانت قبله غائبة إذ ما سبقه من إشارات وتلميحات لدى السابقين تنقصها الدقة، في حين نلفي السكاكي من خلال تقسيماته أنه نظر إلى أدوات البلاغة في تكوينها كما نظر إليها الغربيون، يجيء بالتمثيل توضيحا لفكرة وليس لتحليلها جماليا أو فنيا. ما اصطلح عليه بعد السكاكي قد أصبح في القرن العشرين مفهوما للبلاغة متداولاً في الأوساط المدرسية والتعليمية، يعني بثلاثة حقول أسلوبيّة: البيان والمعاني والبديع. اجترارا لما عرضه السكاكي ومن سبقه دون إثراء أو تعديل فقدّمت الأمثلة للتلقين والتعليم مشكلة أولويات البلاغة في عمومها.

نتج عن بحث مرتاض العميق في التراث العربي وقراءته المتمعنة في قضايا الحدائثة تفضنه ووعيه باختلاف المصطلحات وتوحد المفاهيم واضعا الميراث البلاغي أمام مناظرة مع المفاهيم السيميائية، من ذلك مصطلح البرغماتية أو التداولية في السيميائية المعاصرة والتي تعني بالمسكوت عنه أو المضمّر في تحليل الكلام هو ما أسس له الجرجاني في نظريته معنى المعنى في القرن الخامس الهجري؛ وأما ما عرف في البلاغة العربية مع ابن المعتز في البديع وبعده المعاني هما ما شاع صيته وجمعا في الاصطلاح الحديث تحت مفهوم الأسلوبية، ثم إنّ ما يصطلح عليه اليوم بالانزياح كان قديما يعرف بالعدول³⁷ وغيرها الكثير ما هي إلا مصطلحات أدبية وضعها وتداولها القدماء ذات أصول وجذور

ضاربة في عمق التراث البلاغي العربي اكتسبت مسميات جديدة مواكبة لحركة التطور والتجاذب الثقافي الذي تشهده العلوم حديثا.

ويسلط مرتاض الضوء على مسألتَي الصورة البلاغية-الشعرية وبلاغة التلقي؛ فيرى في مفهوم الصورة أنها تكمن في « انزياحات اللغة الشعرية المعاصرة الخالية من ذلك، من حيث لم تكن الصورة في الكتابات الأدبية القديمة تكاد تستغني عن أدوات البلاغة تتخذها في نسجها، والصورة هي ثمرة التصوير الفني بوساطة لغة شعرية لفكرة أو عاطفة أو رعشة أو غضبة في لحظة تشبه الفلته السانحة؛ فهي تنبأ في النسج الأدبي الجميل فتكون فيه بمثابة التاج الذي يتوج التعبير فيمحصنه للأدبية الرفيعة، ويجعله متميزاً في نسجه عن سوانه، من الكتابة النثرية»³⁸ حيث إن اعتماد الأشكال البلاغية التقليدية حسية ومادية و الاكتفاء بصورة أدبية واحدة يحد من العملية الإبداعية ويجعلها عقيمة، لذا يدعو مرتاض إلى ضرورة تحرير الصورة البلاغية من قوالب أدوات البلاغة الجاهزة مسبقاً (استعارة، مجاز، تشبيه، كناية...)، وفسح المجال لحرية الخيال في عملية التصوير الأدبي إذ إن ذلك لا ينقص من قيمته الفنية في شيء، بل تصبح الصورة أكثر تحسيساً للأشياء المجردة وتزيد شحنها بمدلولات غير مألوفة ما يحقق تصويراً فنياً جمالياً بلغة شعرية في التعبير عن أية أيديولوجية معينة أو عاطفة محدّدة. وقد أولى مرتاض قضية بلاغة التلقي اهتماماً ملحوظاً حيث لاحظ أنّ السابقين يهللون لبلاغة الإرسال مغفلين أهمية الإدراك الجمالي لبلاغة التلقي، ذلك أنّ المتلقي إن لم يكن كفاً لاستقبال الرسالة الأدبية فإنّ النص المرسل يفقد علّة وجوده، ومنه كان لزاماً أن تضاهي كفاءة القارئ كفاءة المرسل من حيث مستوى الفهم والإدراك تحقيقاً لجمالية الأدب مهما اختلفت الأذواق والميولات.

أما موضوع البلاغة الجديدة حسب مرتاض أنّ شأنها من شأن النحو، فكما لا يجوز الاستغناء عن النحو في ديباجة الكلام لا يجوز الاستغناء عن البلاغة أيضاً بأي شكل من الأشكال عبر كلّ العصور وفي جميع الأمصار ومع مختلف الأمم. ثمّ إنّ البلاغة في نظر مرتاض زبئية الاستعمال متداولة بين العامة وليست حكراً على الخواص من مثقفين: كالعلماء والمحامين ومتعلمين كساسة وخطباء ورجال الدين فقط³⁹ بل هي حاضرة في حواراتنا اليومية وأدبنا الشعبي، في كلّ لون لغويّ، ولربّما يستعملها العوام على الفطرة والسليقة دون دراية مسبقة. ومادام الأمر كذلك يرى مرتاض أنّ الحديث عن نظرية البلاغة يستوجب نظرة فذة وتفكيراً نافذاً ذلك أنّ قضاياها ومواضيعها متنوعة ومتشابكة تتطلب الكثير من التعمق والتخصّص في الدراسة والبحث.

ب- المشروع البلاغي لمحمد العمري:

من أبرز الأسماء العربية المعاصرة مساهمة في إحياء البلاغة وتطويرها محمد العمري صاحب المشروع البلاغي العربي الجديد، وله في هذا العديد من الإسهامات التقديرية يظهر فيها اهتمامه بمجالات البلاغة عامة قديمة

كانت أم معاصرة فمن منتجاته الفكرية يذكر : في بلاغة الخطاب الإقناعي-مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية1986م، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها1999م، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول2005م، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة2013م، وترجمته ل: البلاغة والأسلوبية-نحو نموذج سيميائي لتحليل النص لهنريش بليت1989م، الأمر الذي يجعله يصول ويجول ملتمًا بتفاصيل الموضوع محاورًا أي دارس عربيّ أو باحث يخوض في مفهوم البلاغة المعاصرة وشؤونها، ذلك أنّ العمري نفسه يبحث عن مفهوم محدّد للبلاغة التي تداولها العلماء أمدًا من الزمن ولا زالوا يخوضون غمارها، «فمن حق من درس في جامعاتنا، من المحيط إلى الخليج، أن يسألني الآن: عن أية بلاغة تتحدث»⁴⁰، إذ ذاك يشكل دافع البحث ومحرك الدرس البلاغي طوّرت من خلاله المحاولات الغربية طرحها البلاغيّ؛ وللإجابة عن ذلك يقدم العمري للبلاغة في مؤلفه البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول حيث يعرفها على أنّها «علم الخطاب الاجتماعي الهادف إلى التأثير والإقناع أو هما معا إيهاما وتصديقا»⁴¹ أي أنّ البلاغة التي يقصدها العمري ويصّب اهتمامه وعنايته بها تقع وفق شكلين هما :

- بلاغة خاصة بالخطاب التداولي الحجاجي.
- بلاغة خاصة بالخطاب التخيلي الشعري.

ولا يقف العمري عند حدّ التمييز لبلاغة الخطاب بل يزيد طرحه تأكيدًا وفكرته توضيحًا في هذا الصدد فيرى في فصله: «بلاغة شعرية، ذات دعم لساني، وبلاغة خطابية ذات دعم منطقي فلسفي، الأمر الذي سمح لبعض الباحثين بالحديث عن بلاغة لسانية وبلاغة فلسفية. الأولى نشطت في امتداد الحركة الشكلانية المتأثرة بلسانيات دوسوسير، والثانية نشأة عن توسيع المنطق نحو الخطاب الطبيعي وفلسفة القيم مع بيرلمان وغيره من الباحثين. وبهمني أن أدكر هنا بظاهرة دالة، وهي الالتقاء غير المبيت بين الباحثين في نظرية الأدب والباحثين في نظرية الإقناع حول ضرورة الرجوع إلى العلم القديم للخطاب وهو البلاغة»⁴² نظير هذا يرى العمري أنّ النوعيين البلاغيّين متلازمين في الساحة النقديّة العربيّة والغربيّة قديمًا وحديثًا ويدعو إلى مقارنة المستجد بالعتيق، وهو ما شغل باله، وحرك فكره، وشكّل معالم هدفه الأسمى وغايته الفضلى في الاهتمام بمجال البلاغة عامة انطلاقًا من: - ضرورة التمييز بين ما هو شعريّ وما هو خطابيّ، وما يمكن أن تحدّثه خصائص ومقومات الجنسين من إثراء نقديّ وتنويع دراسي.

- إنّ الفصل الذي وضعه بين الشعريّة والخطابيّة ليس فصلًا حقيقيًا، وإنّما كان لغاية الإيضاح والشرح لا غير، إذ لا ينفك بيدي إعجابه بالمتين، بل ويؤسس لبلاغة عامة تحتويهما معا.

ولما كانت البلاغة علمًا كليًا جامعا بين صناعتيّ الشعر والخطابة، رغم أنّ خصائصهما تتمايز وتتداخل أحيانا نظرا لطبيعة كلّ جنس منهما؛ فإنّ فكرة العمري في مشروعه هذا والمتمثلة في البلاغة العامة لم يأت بها من العدم، بل تقصاها وألف حضورها في التراث العربيّ، فتبناها وجعلها مبررًا لشرعيّة رؤيته في دراساته وحواراته في أسئلة

البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة حيث يجعل: «للبلاغة العربية، إذن، مهدان كبيران أنتجا مسارين كبيرين: مسار البديع يغذيه الشعر، ومسار البيان تغذيه الخطابة، ونظرا للتداخل الكبير بين الشعر والخطابة في التراث العربي، فقد ظل المساران متداخلين وملتبسين رغم جهود الكبيرة النيرة التي ساهم بها الفلاسفة وهم يقرؤون بلاغة أرسطو وشعريته»⁴³ يؤكد العمري اعتمادا على طرحه هذا فطنة ودراية العرب القدماء بقضية البلاغة العامة منذ بواكير انفتاحهم على الثقافة الغريبة، رغم أنّ البديع كان مقتصرًا على الشعر يبعث فيه الجمال والتخييل، وكان البيان مرتبطًا بالخطابة يبحث فيها عن المعرفة والإقناع، إلا أنّ الحقلين كانا يشهدان نوعًا من التعلق والتجاذب الملحوظ فظلاً - الشعر والخطابة - يمثلان تحت لواء البلاغة؛ هذا التداخل يرى فيه العمري مزية وإضافة للتقدم التأويلي.

فإلى جانب ذلك وحسب رؤية العمري تنضوي البلاغة عموماً بقديمها وحديثها تحت لواء ثلاثة تيارات متباينة والتي يمكن أن نجملها في:

- تيار شعري بديعي: قائم في الأساس على دراسة الصور البديعية، تاريخياً هو الأسبق في البلاغة العربية القديمة، يمثله ابن المعتز (ت296هـ) بمؤلفه البديع في الشعر والنثر؛ أما في الدرس البلاغي الحديث أبرز ممثليه مجموعة Mu ولييح البلجيكية.
- تيار بياني خطابي: قائم في الأساس على العناية بأساليب الإقناع وبناء الحجج في الخطاب بعيداً عن الشعر، أبرز ممثليه في الثقافة العربية القديمة الجاحظ (ت255هـ) بالبيان والتبيين؛ في حين يمثله بيرلمان ونظريته الحجاجية في الدرس البلاغي الحديث.
- تيار البلاغة العامة: غايته الدمج بين التيارين السالفين بالذكر لخلق بلاغة عامة، ممثليه قديماً عند العرب أبو هلال العسكري (ت395هـ) في الصناعتين، وحازم القرطاجني (ت684هـ) في منهاج البلغاء وسراج الأدباء؛ أما غربياً فيعدّ هنريش بليت أبرز ممثليه بمؤلفه البلاغة والأسلوبية.

ولابدّ من التنويه إلى أنّ العمري دقّ باب علم البلاغة الجديدة معتنياً بالحجاج كمحور رئيس في البلاغة العربية القديمة حيث تظهر أهمية «الحجاج خاصة في البرهنة على الفرضيات الكلامية المتعلقة بكلام الله وقضية خلق القرآن والصفات، حيث بدأ مع تناول هذه القضايا الاهتمام الفعلي بتوظيف الآليات اللغوية والبلاغية والسياقية المقامية من أجل ترجيح قضية ما على غيرها»⁴⁴ دون أن يغفل عن دوره الفعال في الإقناع مصرّحاً بذلك في قوله: «أردت أن أنبه فيه إلى البعد الإقناعي للبلاغة العربية... وقد أعجبت كثيراً في هذه المرحلة بعمل بيرلمان Perelman وتيتيكا Tyteca لعنقه وبساطته»⁴⁵ ما يتمّ على أنّه إلى جانب تمسكه الشديد بالمخزون التراثي العربي القيم لم يسلم من التأثير بطرح الوافد الثقافي الغربي المعاصر في مجال البلاغة ممثلاً بالإقناع

والحجاج في الفكرين، فزواج بين الثقافتين مستغلا ذلك وحاملا له إلى خلق فكر عربيّ معاصر، أين شغل له حيّزا ملحوظا في مختلف إسهاماته.

إذ حول قضية الحجاج والبلاغة ينطلق العمريّ متسائلا عن طبيعة العلاقة التي تربطهما ليوقف عند حدّين لمفهوم الحجاج: لساني ومنطقي؛ « فالحجاج في (المفهوم اللساني) ليس أكثر من مادة أولية بالنسبة للحجاج في (التداولية المنطقية) التي تشترك مع البلاغة الجديدة في تجنيس الخطاب»⁴⁶ فحجاج المفهوم التداولي اللساني يشكّل مبحثا جزئيا يجد ضالته في كلّ الخطابات لاسيّما الخطاب الحوارية إذ ما من كلام إلا ومعناه مرتبط بسياق ما. في حين أنّ حجاج المفهوم التداولي المنطقي يعنى بالخطاب الخالي من البرهان « يلامسه ويلاسه مستعبرا بعض صيغته وأسبقته ثم ينحدر في درجات الاحتمال »⁴⁷. وبين النصّ الحجاجي وغير الحجاجي تطرح درجات الحجاجية فيحيدّ "التفريق بين الخطابات التي تستهدف الحجاج والاقناع والخطابات التي لا تستهدف ذلك، ولكنها لا تخلو من بعد حجاجي ناتج عن السياقات الموجهة للخطاب»⁴⁸ إذ لا يمكن الجزم بوجود الحجاج في كلّ الخطابات. أما بالرجوع إلى العلاقة القائمة بين البلاغة والحجاج فإنّها « تمتد من المطالبة بقطيعة جذرية إلى القول بوجود توازن بين ما اعتبر مبحثين متمايزين ومتكاملين إلى حد ما، وصولا إلى اقتراح دمجهما في نشاط لغوي واحد»⁴⁹ خاصة وبعد النظر في حدّي الحجاج -اللساني والمنطقي- فإنّه يمكن الأخذ بالفصل بينهما إذا ما ارتبط الأمر بالمنطق والدمج بينهما إذا ما تعلق باللسان.

خاتمة:

إنّ حقل الدرس البلاغيّ شاسع وواسع مترامي الأطراف لا يحده حدّ ولا تسعه مصنفات ولا يكفيه مداد بحر لو جئنا بمثله مدادا، ينتهي بنا التجوال في غياهبه نحو الخروج بجملة من النتائج النسبية حيث: يمكن القول إنّ المشروع العلمي لمحمد العمري ونظرية البلاغة لعبد الملك مرتاض قد ساهما في فتح آفاق جديدة للدراسات البلاغية والنقدية نوجزها فيما يلي:

1. رد الاعتبار للبلاغة العربية القديمة بإعادة النظر في مختلف جميع مستوياتها ومصطلحاتها ونفض غبار النسيان عنها الذي ظلّ يحول دون معرفتنا الحقّة بكنوز تراثنا.
2. تطوير آليات التنظير البلاغيّ باعتماد المقاربة المنهجية للموروث البلاغيّ العربيّ القديم واستثمار أنموذج البلاغة الجديدة وافد الدرس الغربيّ الحديث، توليدا لمعرفة جديدة واعية منهجية بالانفتاح على قراءة معارف قديمة ومعاصرة.
3. توسيع نطاق الخطاب الحجاجي والإقناعي والمعربيّ العام للبلاغة العربية، واسترجاع المفهوم البلاغيّ الجديد لبعدها التداولي الحوارية.

4. رجوع ذلك البعد المفقود المتمثل في تجاذب المجال الأدبي والفلسفي المنطقي.
5. استفادة الدرس البلاغي الحديث من علوم اللسان كاستثماره لمعطيات المجالين اللساني المنطقي والفلسفي في التنظير لمصطلح بلاغة الحجاج.
6. جعل البلاغة علما كلياً قادراً على استيعاب مختلف الخطابات التحليلية والتداولية الهادفة إلى إحداث التأثير والإقناع.
7. تزويد القارئ العربي بمعالم الدرس البلاغي الحديث وتنوير فهمه بإزالة الغموض واللبس الذي قد يكتنفه في تلقي معطيات التنظير بتوضيح المقدمات الفعلية للمصطلحات البلاغية ومفاهيمها الأساسية وتوجهاتها المعرفية.
8. اتسمت محاولتي العمري ومرتاض بالقراءة التركيبية التي سمحت لهما بتحليل محتويات النظريات البلاغية والخوض في مختلف أبعادها عن وعي ومعرفة فذة ونظرة ثابتة بإشكالياتها.

إنّ الحديث عن منجزات التنظير البلاغيّ في التّقد العربيّ المغاربي الحديث تنوّع وتعدّد تعدّد أقطابه ومفكره ذلك أنّ موضوع الدّراسة في حدّ ذاته متشعب يطول ويتّسع مجالاً، وإنّ وقوع التّظر على منجزين نقديين لا يعني الإلمام بتفاصيل الدّرس البلاغيّ العربيّ الحديث وإتّما يبقى الاجتهادين غيظ من فيض، هذا الفيض الذي يستلزم وقوفاً واعياً وانفتاحاً منهجياً أثناء الخوض في غمار جميع مراحل القضيّة البلاغيّة ومحطاتها المعرفيّة والعلميّة. فحسب قول شاييم بيرلمان: "كل بلاغة تتمركز على أشكال محددة في التفكير والأسلوب، ولا تحاول توسيع نطاق تطلعاتها إلى أقصى حد ممكن، ولا أن تتعاطى مع الحجاج البلاغي المعني بالقيم في مجمله مصيرها الزوال سريعاً لا محالة" وعليه وجب:

- فتح مجالات التعاون العلمي والمعرفي بين النقاد والمفكرين العرب وتشجيع روح العمل الجماعي عن طريق تكثيف اللقاءات والندوات الأكاديمية، ما دام الهدف الأسمى من التراث هو الحفاظ على اللغة ومراعاة سلامة تطورها كوجه من أوجه الحضارة العربية الإسلامية، إذ إن البحث فيه في صيرورة دائمة وعمليات إعادة قراءة مقولاته لا تزال مستمرة واستكشاف مكنوناته متواصلة ضبطاً لحقيقة مصطلحاته.
- تغيير مناهج تلقين الدرس البلاغي بتجاوز الشواهد البلاغية المقتلعة من أصولها القديمة كثوابت محنطة، وخلق البديل في تقرير نصوص أدبية أنيقة تزخر بملاحم بلاغية جديدة تبعث روح التجديد في البلاغة العربية.

المراجع:

1. السكاكي، مفتاح العلوم، تع: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط2، 1987.
2. أبو الهلال العسكري، الصناعتين: الكتابة والشعر، تع: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، د ب، ط1، 1952.
3. جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، د ط، 2014.
4. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 1992.
5. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق-سوريا، ط1، 2012.
6. عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، وهران-الجزائر، ط02، 2010.
7. محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة: دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، د ط، 2013.
8. محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، ط2، 2005.
9. محمد العمري، البلاغة والحجاج أو بلاغة الحجاج، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 2012، مج40، ع4.
10. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت-لبنان، ط1، 2008.
11. محمد عبد الرزاق بوعافية، البلاغة العربية والبلاغات الجديدة: قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة، مؤسسة حسين راس الجبل للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2018.
12. محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت-لبنان، ط1، 2006.
13. محمد مشبال، البلاغة والأدب: من صور اللغة إلى صور الخطاب، ط1، القاهرة: دار العين للنشر، 2010.
14. يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جبور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007.

الهوامش:

1. محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت-لبنان، ط1، 2006، ص06.
2. المرجع نفسه، ص 06.
3. نفسه، ص 06.
4. عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، وهران-الجزائر، ط2، 2010، ص 26. نقلا عن: الجاحظ، البيان والتبيين، تع: حسن السنديوي، القاهرة، 1947، ص 127 .
5. العسكري أبو الهلال، الصناعتين: الكتابة والشعر، تع: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، د ب، ط1، 1952، ص 10.
6. السكاكي، مفتاح العلوم، تع: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط2، 1987، ص 415.
7. بن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق-سوريا، ط1، 2012، ص 622.

8. ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، ط2، 2005، ص 66.
9. ينظر: المرجع نفسه، ص 67.
10. ينظر: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، ط، 2014، ص 80.
11. ينظر: محمد مشبال، البلاغة والأدب، دار العين للنشر، القاهرة-مصر، ط1، 2010، ص 50.
12. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، ط، 1992، ص 65.
13. جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص32. نقلاً عن:
- Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-tyteca: traité de l'argumentation: La nouvelle rhétorique, Presses Universitaires de France, Paris, 1958, p31.
14. محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص69. نقلاً عن: L'empire rhétorique p.9.
15. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت-لبنان، ط1، 2008، ص 108/107. نقلاً عن:
- Traité de l'argumentation: La nouvelle rhétorique. Préface de Michel Meyer, Bruxelles : Université de Bruxelles, 05 éd, 1992, p59.
16. جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص 31. نقلاً عن:
- ، Chaim Perelman et Lucie Olbrechts –tyteca ,p.36
17. ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص72.
18. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص66.
19. يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جبور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007، ص79.
20. ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 140.
21. عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص176.
22. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص66.
23. ينظر: المرجع نفسه، ص88.
24. ينظر: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص 84.
25. عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص155. نقلاً عن:
- CF.Morris, Foundatios of the théorie of signes , Chicago, 1938, (Encyclopédie de la science Unifiée).
26. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة: بحث في بلاغة النقد المعاصر، ص 176/175.
27. عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص 173.
28. ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص 78.
29. ينظر: عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص7.
30. ينظر: المرجع السابق نفسه، ص 23.
31. المرجع السابق نفسه، ص21.
32. المرجع نفسه، ص29.

33. نفسه: ص99.
34. نفسه: ص98.
35. سورة الاسراء، الآية:88.
36. ينظر: عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، ص56.
37. ينظر: المرجع السابق نفسه، ص 144 . 145 .
38. المرجع نفسه، ص 183 . 184 .
39. ينظر: نفسه، ص 290/278.
40. محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة: دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء – المغرب، د ط، 2013، ص 17.
41. محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التداول والتخييل، ص06.
42. محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 51/50.
43. محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، المرجع نفسه، ص 29.
44. محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 261.
45. بوعافية محمد عبد الرزاق، البلاغة العربية والبلاغات الجديدة: قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة، مؤسسة حسين راس الجبل للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2018، ص97. نقلا عن محمد العمري: www.medelomari.com
46. محمد العمري، البلاغة والحجاج أو بلاغة الحجاج، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 2012، مج40، ع4، ص 264.
47. المرجع نفسه، ص 264.
48. نفسه، ص273.
49. نفسه، ص272.